

٩

أشهر الفقيهات

زينب بنت علي — فاطمة بنت الحسين

سكينة بنت الحسين — نفيسة بنت الحسن

زبيدة زوجة الرشيد



بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة أشهر النساء

٩

أشهر الفقيهات

إعداد

أحمد محمود الخولي

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم التسلسل ٦٠

سورية - دمشق - حلبوني - ص.ب ٢٥٢٣٧
فاكس : ٢٤٥٤٠١٣ ١١ ٩٦٣+ هاتف ٢٤٥٣٦٣٨ ١١ ٩٦٣+
algwthani@scs-net.org



بسم الله الرحمن الرحيم

العلمُ ميراثُ الأنبياءِ، به يَهتدي الإنسانُ إلى الحقِّ والصوابِ، ويبتعدُ عن الباطلِ والضّلالِ، والحرصُ عليهِ لهُ مكانَةٌ كَبيرةٌ وثَوابٌ عَظيمٌ، قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَن سلكَ طَريقًا يبتغِي فيهِ علمًا سَهَّل الله لهُ طَريقًا إلى الجنّةِ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أَجنحتهَا لطالبِ العلمِ رضًا بمَا يَصنعُ..»[أبو داود].

وقالَ ﷺ: « مَن يُردِ الله بهِ خيرًا يُفقّهُ في الدّينِ» [متفق عليه].

وقَدْ كانَ للمسلماتِ الأُولِ دَورٌ كَبيرٌ في تحصيلِ العلمِ، ونشرهِ بين طُلابهِ، فكانَتْ منهنّ الحَافظاتُ للقُرآنِ والحديثِ، والعالماتُ بالفقهِ والتفسيرِ...إلخ

وهذهِ بعضُ الأَمثلةِ المشرقةِ مِن هؤلاءِ النُّسوةِ اللاّتي كُنَّ على قَدرٍ كبيرٍمن العلمِ والفقهِ.

** ** **

زينبُ بنتُ عليّ

مِن أَقوالِهَا: «مَن أرادَ أن يكونَ الخَلق شُفعاءَهُ إلى الله فليحمدهُ.. ألَمْ تَسمعْ قَولَهم: سمع الله لمَنْ حَمدَهُ.. فخفِ الله لقدرتهِ عليكَ! واستحِ منهُ لقربهِ منكَ».

وُلدتْ في السّنة السّادسة للهجرةِ لأبوينِ شَريفينِ؛ فأبوهَا علي بنِ أَبي طَالبٍ ـ رضَيَ اللهُ عنهُ ـ، وأمُّهَا السيدةُ «فَاطمةُ الزهراء» بنت رَسول الله ﷺ.

أدركتِ السيدةُ زينبُ جدّها النبي ﷺ في طفولتِهَا فحملهاَ بينَ يديهِ، ونعمتْ برؤيتهِ المُباركةِ، ونشأتْ في بيتِ علمٍ ودينٍ، وشهدتْ اتساعَ دولةِ الإسلامِ في عهدِ جدّها عليهِ الصلاةُ والسلامُ، ثُمّ في عهد «أَبي بكرٍ» و«عُمر» و«عُثمان» وأبيهَا «عَلي» رضوانُ الله عليهمْ أجمعينَ، وتزوّجت «عَبد الله ابن جَعفرٍ بن أَبي طَالب»، وأنجَبتْ له ستةَ أَولادٍ.

عاشتْ السيدةُ «زَينبُ» أحداث الفتنِ التِي وَقعتْ في صُفوف المسلمينَ، فقَدْ احتضنتْ أَباها حِين قُتلَ، ورحلتْ مع أَخيهَا «الحُسينِ» إلى الكُوفةِ، وشهدتْ يَوم كربلاء وكانَ أشدّ الأَيام عليها حُزنًا وألمـاً.

ففِي هَذا اليوم ـ وهو يَوم العَاشر من شهْرِ المحرّم سنة ٦١ من الهجرةِ ـ استشهدَ أخوهَا الحُسينُ ـ رضي الله عنهُ ـ

واستشهدَ معهُ ولداها «محمّدٌ» و«عَونٌ» وآخرونَ من أهلِ بيتهَا. فجعلتْ «زينبُ» تنظرُ إلى جثثهِمْ، وقَدْ هاجتْ أشجانهَا وأحزانُهَا وأخذتْ تنُادي: «يَامحمّداه.. يَامحمّداه، صلَّى عليكَ ملائكةُ السماءِ، هَذا حُسينٌ بالعراءِ، مُزَمَّلٌ بالدماءِ، مقطّعُ الأعضاءِ،.. يامحمّداه، وبناتُكَ سَبايا، وذريّتُكَ مقتَّلةٌ». فأبكتْ كلّ عَدوٍ وصَديقٍ.

ثُمّ انطلقتْ جُنودُ بني أُمّية بالسيدةِ زَينب ومَن معهَا إلى دمشق مقرِ خلافة يَزيد بن مُعاوية، فلمّا دَخلوا على «يزيد» في قصرِه، بكتْ نساءُ آل هَاشمٍ إلا زَينب، فقَدْ قالتْ: أظننتَ يايزيدُ أنَّهُ حين أُخذَ علينَا بأطرافِ الأرضِ وأكنافِ السماء فأصبحنا نُساقُ كما تُساق الأُسارى، أنّ بنَا هَوانًا على الله وأنَّ بكَ عليهِ كَرامةً؟ وتَوَهَّمْتَ أن َّهذَا لِعَظِيمِ خَطَرِكَ،فشَمَخْتَ بأنفكَ، والله ما فريتَ إلا في جلدكَ، ولاحَزتَ إلا في لحمكَ! وستَرِدُ على رَسُولِ الله ﷺ وآله برغمكَ، ولتَجدنَّ عترَتَهُ ولحمتهُ مِن حولِهِ في حظيرةِ القدسِ، يَوم يجمعُ الله شَملهم من الشعثِ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فكانَ لهذه الكلماتِ وقعُ الصّاعقةِ على يَزيدَ، حيثُ صعبَ عليهِ الأمْرُ، فتابَ إلى الله، ثُمّ جهَّزَهُمْ بمَايَصلحُ،

وبعثَ معهُمْ رجلاً من أهل الشّام أمينًا، وخيلاً وأعوانًا، وكساهُمْ وأوصى بهم الشّامي، فمَازالَ ذلكَ الشّامي يَلطفُ بهِمْ حتى دَخلُوا المدينة. فأرادتْ زينبُ أن تُعطيه ذَهبها ومَا معها من حُلي جزاء صَنعه، فرفضَ، وقالَ: لوكانَ الذي صَنعتُ إنَّما هَو للدنيَا كانَ في حُـليِّـكُنَّ مايُرضيني، ولكنْ والله مافعلتهُ إلا للَّهِ ولقرابتكُمْ من رَسولِ الله ﷺ.

أخذتْ «زينبُ» بعدَ ذلكَ تَحكي لأهلِ المدينة مَافُعلَ بهِمْ ومَاتعرضُوا لهُ، فخشَي «يزيدُ» أن تؤلّبَ عليهِ النّاسَ، فأرسلَ إلى وَالي المدينةِ آمرًا بأنْ يفرّق «آل البيتِ» في الأقطارِ والأمصارِ. فجاءَ الوالي إلى السّيدةِ «زَينب» وطلبَ منهَا أنْ تخرجَ من المدينةِ فتقيم حَيثُ تَشاء.

فاختارتْ السيدة زينبُ أرضَ «مصَر»، وسافرتْ إليهَا، فاستقبلهَا شعُبهَا وأميُرهَا «مَسلمةُ بنُ مَخلدِ الأنصاري» استقبالاً عَظيمًا؛ فبقيتْ ـ رضي الله عنهَا ـ فيهَا حَوالي عَامٍ.

وقد توفيتْ سنة ٦٥ للهجرةِ ودفنتْ في جزءٍ من هذه الدّارِ، التي تحولّتْ بعدَ ذلكَ إلى مسجدٍ تُقامُ فيه شَعائرُ الصّلاة؛ وهو المسجدُ الزينبي المشهورُ بالقاهرةِ.

وقَدْ روت السيدة «زَينبُ» الكثيرَ من الأحاديثِ النبوّية، وروى عنها علماءُ الحديثِ، فرضي الله عنهَا وأرضاهَا.

سُكينةُ بنتُ الحُسينِ

جاءَ أهلُ الكُوفةِ يعزُّونهَا في مَقتل زوجِهَا، فقالتْ لهم: الله يَعلمُ أنِّي أُبغضكُمْ، قتلتُمْ جدّي عَليًّا، وقتلتُمْ أَبي الحُسين، وزوجِي مُصعبًا فبأي وجهٍ تَلْقُونِني؟ يتَّمتُمُوني صَغيرةً، وأرملتُمُوني كَبيرةً.

وُلدتْ سَنة سَبعٍ وأَربعين من الهجرة، وسُمِّيت آمنة على اسمِ جدّتِهَا آمنة بنت وَهب، ولقّبتهَا أُمُّها الربابُ سُكَيْنَة، واشتهرتْ بهذا الاسمِ، وفي الثلثِ الأخيرِ من حياتِهَا اشتغلتْ بتعليمِ المسلمينَ، حيثُ شربتْ من بيتِ النبوةِ أَفضلَ الأخلاقِ فوُصِفَتْ بالكرمِ والجودِ، وأَحبّتْ سماعَ الشعرِ فكانَ لهَا في ميادينِ العلمِ والفقهِ والمعرفةِ والأدبِ شَأنٌ كبيرٌ.

وقَدْ كانتْ سُكينةُ ـ رضي الله عنهَا ـ مع أَبيهَا الحُسين بن علي حينَ قُتل في كربلاءَ، وكانَ عمرُهَا آنذاك أربعةَ عشرَ عَامًا، وفي ذُهولٍ وقفتْ سكينةُ تنظرُ إلى البقايَا والأشلاء، ثُمّ ألقتْ بنفسِهَا على ما بقي من جسدِ أَبيها، وفيهِ ثلاثٌ وثلاثونَ طَعنةً وأَربعٌ وثلاثونَ ضَربةً، وعانقتهُ، ولكنَّ الجنودَ انتزعوهَا مِن على جسدِ أَبيها بالقوةِ، وألحقُوهَا بركبِ السبايَا، فألقَتْ سُكينةُ نظرةً أَخيرةً على سَاحةِ القتالِ المملوءَةِ بجثثِ الشهداءِ.

ودارت الأيامُ، وعادَتْ سُكينةُ ـ رضي الله عنهَا ـ إلى الحجازِ حيثُ أَقامتْ مع أُمّها رَبابَ في المدينةِ.

ولَمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى تُوفيتِ «الربابُ»، وعاشتْ سُكينةُ بعدهَا في كنفِ أَخيها زين العابدينَ، وكانتْ قد خُطبتْ مِن قَبلُ إلى ابن عمّهَا عَبدالله بن الحَسن بن عَلي، فَقُتلَ بالطائفِ قبل أن يَبني بهَا، فكانتْ ـ رضي الله عنهَا ـ ترفضُ الزواجَ بَعد هذه الأَحداثِ.

وبعدَ فترةٍ من الزمنِ.. جاءَ مُصعبُ بنُ الزبيرِ بن العوّام يريدُ الزواجَ منهَا، وكانَ شُجاعًا جوّادًا ذا مَالٍ ومُروءةٍ حتى قِيلَ فيهِ: «لو أنَّ مُصعبَ بن الزبيرِ وجدَ أنَّ الماءَ ينقص من مُروءتهِ ما شربهُ».فتزوّجتهُ، وعاشَتْ معهُ.

وظلّتْ سُكينةُ ـ رضي الله عنهَا ـ تُسعدُ زوجهَا، ولكنْ أَين تَذهَبُ مِن قدرهَا المحتُوم، فسَرعان ما قُتِلَ مُصعبُ، فلمّا انقضتْ عدّتُهَا، تزوجتْ عَبد الله بن عُثمان بن حكيم بن حِزام، وأنجبتْ منهُ: عُثمان، وحكيم، ورَبيعةَ، ثم ماتَ عنها بعدَ ذلكَ، فظلَّتْ حَافظةً لذكراه، واتجهتْ إلى العلمِ والعبادةِ.

وقَدْ تُوفيتْ السيدةُ سُكينةُ سَنَة ١١٧هـ، بعدَ أن تجاوزتْ الثمانينَ من عُمرِهَا، فرضي الله عنهَا وأرضاهَا.

فَاطمةُ بنتُ الحُسينِ

ذُكرتْ عند الخليفةِ عُمر بن عَبدِ العزيزِ ـ رضي الله عنهَا ـ فقيلَ عنهَا: إنَّها لاتعرفُ الشرَّ. فقالَ عُمرُ: عَدمُ معرفتِهَا الشرّ جنَّبها الشرّ. وكانَتْ ـ رضي الله عنهَا ـ تُوصي أبناءهَا دَائمًا فتقولُ لهُمْ: استَتِروا بسترِ الله.

هي «فاطمةُ بنتُ الحُسين بن علي بن أَبي طَالبٍ» ـ رضي الله عنهُمْ. تقدّمَ ابنُ عمّها الحَسنُ بن الحَسن بن علي بن أَبي طَالب ـ رضي الله عنهُمْ ـ لعمّه الحُسين للخطبة، فقالَ لهُ الحُسين: يا ابن أَخي، لقَدْ انتظرتُ هذا منكَ، انطلقْ معِي. فخرجَ بهِ حتى أدخلهُ منزلهُ، ثُمّ أَخرجَ إليهِ بنتيهِ فَاطمة وسُكينة، فقالَ: اخترْ، فاختارَ فاطمةَ. فزوَّجهُ إيّاها؛ فولدتْ لهُ: عَبد الله، وإبراهيمَ، وحَسنًا، وزينبَ.

ولمّا وقعتِ الفتنةُ وقُتِلَ الحُسينُ ومَن معهُ بمكان يُقالُ لهُ: «الطّفّ» عندَ كربلاء. أُخذَتْ فاطمةُ ومَن بقي من آلِ البيتِ إلى يَزيد بن مُعاوية، فأمرَ بهم فجُهِّزُوا وأُخرِجوا إلى المدينة المنورة.

ولما استشهدَ الحَسنُ بن الحَسنِ، وانقضتْ عدتهَا، أرسلَ إليها عَبدالله بن عَمرو بن عُثمان يخطبُهَا، فنكحتهُ؛ وولدتْ لهُ مُحمَّدًا الذي سُمي بالديباج لِحُسنهِ وجَمالهِ، والقَاسمَ، ورقيّةَ.

وبعدَ مَوتِ زوجِهَا عَبدالله بن عَمروٍ خطبهَا عبدُالرحمنِ بنُ الضّحَاك وكانَ حاكمًا للمدينةِ، فرفضَتْ، فغضبَ عليهَا، فشكتهُ إلى رَجلٍ شَامي يُدعي ابن هُرمزٍ، فقالتْ لهُ: تُخبرُ أميرَ المؤمنينَ بما ألقى من ابن الضّحاك ومَايتعرّض منِّي. كمَا أوفدَتْ رَسولاً بكتابٍ إلى يَزيد، فلمّا قرأهُ جعل يضربُ بخيزرانَ في يديهِ ويقولُ: لقَدْ اجترَأ ابنُ الضّحاكِ؛ هَل من رجلٍ يُسمعُني صَوتهُ في العذابِ وأنا على فِراشِي؟ فقيل لهُ: عَبدُ الواحدِ بنُ عَبدالله بن بِشْرٍ الخضَري. فدعَا يُزيدُ بقرطاسٍ فكتبَ بيدهِ إلى عبدِالواحدِ، وهوبالطائفِ: سلامٌ عليك، أمّا بَعد؛ فإنِّي قَدْ وليتكَ المدينةَ فإذَا جاءكَ كتابي هذا فاهبطْ واعزِلْ عنهَا ابن الضّحَاكِ وأغرمهُ أربعينَ ألف دَينارٍ، وعذبهُ حتى تُسْمِعني صَوته وأنَا على فراشِي. فأغرمهُ عَبدالواحد أربعين ألفَ دينار وعذّبه وطافَ بهِ في جُبّةٍ من صُوفٍ.

وكانتْ فاطمةُ صَاحبةَ حكمةٍ، وراويَةً من راويات الحديثِ، كمَا كانتْ ـ رضي الله عنهَا ـ تُحبّ العلمَ وتحفظُ القرآنَ الكريمَ، كمَا كانتْ تُحبُّ الشعرَ؛ رُوي أنه لما دخلَ الكميتُ بيتهَا، قالتْ: هَذا شاعرُنَا أهل البيت. وأمرتْ لهُ بثلاثينَ ديناراً، فدمعتْ عيناهُ وقالَ: لاوالله لاأقبلُهَا إنِّي لم أحبكُمْ للدنيا.

وقَدْ توفيتْ ـ رضي الله عنهَا ـ في عام ١١٠ من الهجرةِ.

نفيسةُ بنتُ الحَسنِ

كانتْ من العابداتِ القانتاتِ للّه، كمَا كانتْ مصباحًا أضاءَ الطريقَ للسّالكينَ الحيارى، وقدوةً لأهلِ التقوى والإيمان.

في مكّةَ المكرّمة، وُلدتْ نفيسةُ بنتُ الحَسن بن زَيد بن الحَسن بن علي بن أبي طَالب، وكانَ ذلكَ اليومُ السّعيدُ بعدَ مئةٍ وخَمسة وأربعينَ عَامًا من هجرةِ الرّسولِ ﷺ (١٤٥هـ).

وفي البلدِ الحرامِ عَاشتْ نفيسةُ مع أحفادِ رَسُولِ الله ﷺ، فتأثرتَ بهم، وسَارتْ على منهجِهِمْ؛ فحفظتْ القُرآنَ الكريمَ، وأقبلَتْ على فَهم آياتهِ وكلماتهِ، كمَا حفظَتْ كثيرًا من أحاديثِ جَدّها ﷺ.

نظرتْ نفيسةُ إلى الدنيا، فوجدتهَا فانيةً زائلةً، فأعرضَتْ عنهَا، وزهدَتْ فيهَا، وأقبلتْ بوجههَا إلى الله، تستغفرُهُ، وتتوسّلُ إليهِ، وتطلُبُ منهُ العفوَ والغفرانَ، ولمّا بلغتْ نفيسةُ مَبلغَ الشاباتِ؛ تقدّم لخطبتهَا ابنُ عمّها إسحقُ المؤتمنُ بن الإمامِ جَعفر الصّادقِ، فرضيتهُ زوجًا لهَا.

وفي المدينةِ المنّورةِ، عاشَتْ نفيسةُ آمنةً مُطمئنةً، وفتحَتْ بيتهَا لطلابِ العلمِ، تَروي لهم أحاديثَ رَسُولِ الله ﷺ، وتَفْتِيهم في أُمورِ دِينهِمْ ودُنياهُمْ، حتى أطلقوا عليهَا اسم: «نَفيسَة العلمِ والمعرفةِ».

وفي عَام مئةٍ وَثلاثةٍ وتسعينَ من الهجرةِ (١٩٣هـ)، وصلتْ السيدةُ نفيسةُ إلى مصرَ بصحبةِ والدِهَا وزوجهَا، واستقرّتْ في الفسطاطِ بدارِ ابن الجصاصِ وهو من أعيانِ مصرَ، وقَدْ استقبلتْ استقبالاً حافلاً، وسرّ أهلُ البلادِ بقدومِ حفيدةِ رسولِ الله ﷺ.

واستمرّتْ نفيسةُ في حَياة الزّهد والعبادةِ، تقُومُ الليلَ، وتصُومُ النهارَ، حتى طلبَ منهَا زوجُهَا ذاتَ يومٍ أنْ ترفقَ بنفسِهَا، فقالَتْ: «مَن استقامَ مع الله، كانَ الكونُ بيدهِ وفي طاعته». وكانَتْ تَعرفُ أنَّها لكي تَفوز بجنّة الخلدِ، فلابدّ لهَا أنْ تجتهدَ في العبادةِ، وأنْ تبتعدَ عن ملذاتِ الدنيا، تقولُ:«لا مَناص من الشوكِ في طريقِ السعادةِ، فمَنْ تخطاهُ وصلَ».

وداومَتْ السيدةُ نفيسةُ على زيارةِ بيتِ الله الحرامِ، وقيلَ: إنّها أدَّتْ شعائرَ الحجّ ثلاثينَ مرّةً، تَذهبُ إلى هُناك تتطّهرُ مِن ذنوبَها، وتجدّدُ العهدَ مع الله على الطاعةِ، والاستجابةِ لأوامرِه، والابتعادِ عن كلِّ ما يغضبهُ، ثُمَّ تَعودُ إلى مصرَ.

وكانَتْ عَظيمةَ القدرِ والمكانةِ عندَ أهلِ مصرَ، فكانُوا يذهبونَ إليهَا، يلتمسونَ عندهَا العلمَ والمعرفةَ، بل كانَ يقصدُ دارهَا كبارُ العلماءِ، فَقدْ تردّد عليهَا الإمامُ الشّافعي، فكانَتْ

تستقبلُهُ من وراءِ حِجابٍ، وتناقشُهُ في الفقهِ وأُصولِ العبادةِ وأحاديث الرّسولِ ﷺ.

وحينَ مرضَ الإمامُ الشّافعي أرسلَ إليهَا يطلبُ الدعاءَ لهُ بالشفاءِ، لكنّهُ ماتَ بعد أيامٍ بعد أنْ أوصى أن تُصلّي عليهِ السيدةُ نفيسةُ، فصلّتْ عليهِ بعد أن صلّى عليه الرجالُ، وحَزنتْ من أجلهِ.

وكانَتِ السيدةُ نفيسةُ ـ رضي الله عنهَا ـ تُجيرُ المظلومَ، ولا تَستريحُ حتى ترفعُ الظلمَ عنهُ، فَقدْ استجارَ بهَا رجلٌ ثَري من ظُلم بعضِ أُولي الأمرِ، فساعدتهُ في رفعِ الظلمِ عنهُ، ودَعتْ لهُ، وعادَ مكرّمًا معزّزًا؛ فأهداهَا مئة ألف درهمٍ شُكرًا لهَا واعترافًا بفضلهَا، فوزّعتهَا على الفقراءِ والمساكينَ، وهي لا تملكُ ما يكفيهَا من طعام يومهَا.

وبعدَ سَبع سنواتٍ مِن الإقامةِ في مصرَ، مرضَتْ السيدةُ نفيسةُ، فصبَرتْ ورضيَتْ، وكانَتْ تقولُ: «الصبرُ يلازمُ المؤمنَ بقدرِ مَا في قلبهِ من إيمانٍ، وحَسبُ الصّابرِ أنَّ الله معهُ، وعلي المؤمنِ أن يستبشرَ بالمشاقِّ التي تعترضهُ، فإنَّها سَبيلٌ لرفعِ درجتهِ عندَ اللهِ، وقَدْ جُعلَ الأَجرُ على قَدرِ المشّقّة، والله يُضاعفُ لمَنْ يَشاءُ، والله واسعٌ عليمٌ». وتقولُ

أيضًا: «لَقدْ ذُكِرَ الصبرُ في القرآنِ الكريمِ مئة وثلاث مّرات، وذلكَ دَليلٌ على قِيمة الصبرِ وعلوّ شأنهِ وحُسن عاقبتهِ».

ولمّا أحسَتْ أنَّ النهايةَ قَدْ اقتربَتْ، أَرسلَتْ إلى زوجِهَا إسحاق المُؤتمن، تَطلبُ منهُ الحضورَ وكانَ بعيدًا عنهَا.

وفي صَحن دارهَا، حَفرتْ قبرهَا بيدهَا، وكانَتْ تنزلُ فيهِ وتُصلي كثيرًا، حتى إنها قَرأتْ فيه المصحفَ مئةً وتسعينَ مّرةً وهي تَبكِي بُكاءً شديدًا.

وكانَتْ السيدةُ نفيسةُ صَائمةً كعادتِهَا، فَألحُّوا عليهَا أَنْ تفطرَ رفقًا بهَا، وهي في لحظاتِها الأَخيرة، لكنَّها صَمّمت على الصومِ برغمِ أنَّها كانَتْ على وشكِ لقَاء الله، وقالَتْ: واعجبًا، مُنذ ثلاثينَ سَنة أسألُ الله تعالى أن ألقاهُ وأنَا صَائمةٌ، أأفطرُ الآنَ؟! هَذا لا يكونُ. ثُمَّ راحَتْ تقرأُ بخشوعٍ من سُورة الأنعامِ، حتى وصلَتْ إلى قولهِ تعالى: ﴿۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، [الأنعام: ١٢٧]. ففاضَتْ روحُهَا إلى الله، فبكاهَا أهلُ مصرَ، وحَزنُوا لموتهَا حُزنًا شديدًا، وحينمَا حضرَ زوجُها أراد أن ينقل جثمانها إلى المدينة، لكنّ الناس منعُوه، ودُفنتْ في مصرَ حيثُ بهَا مسجدهَا الآنَ.

زُبَيْدةُ زوجةُ الرّشيدِ

أَنصِتْ.. استمِعْ جيدًا.. تُرَى مَا هَذا الصّوتُ القَادمُ من قَصر أمير المؤمنينَ هَارونَ الرّشيدِ، إنّهُ صَوتٌ يشبُه دَوِي النّحل، تَعالَ نقتَربُ مِن القصرِ، هَا قد اتضحَ الصّوتُ: إنّهن جَواري زُبيدة زَوجة الخليفةِ يَحفظْنَ ويرتلْنَ القرآن الكريمَ.

كانَتْ زُبيدةُ تَتمنّى بينهَا وبينَ نفسهَا أَن تتزوّج من ذلكَ الشّابِ اليافعِ، وهَا قَدْ تحقّقَ حلمُهَا الذي كانَتْ تحلم بهِ، فَقدْ عادَ ابن عَمّهَا هَارُونُ الرّشيدُ مَع أبيهِ الخليفَة «المهدِي» من ميدانِ المعركةِ بعدَ أن حققَا النّصرَ على الرومِ، وسَتكُون الفرحةُ فرحتينِ، فَرحَة النَّصر، وفَرحَة الزّواج من هَارون، نُصُبتْ الزينات وأُقيمتْ الولائمُ التي لَمْ يشهدهَا أحدٌ من قَبلُ في بلادِ العربِ وازّينتْ زُبيدةُ بالحلّي والجَواهرِ، والمسكِ والعنبرِ والرّوائحِ الطيبةِ تنتشرُ في مكانِ العرسِ، والنّاسُ مسرورونَ بهذَا الزواجِ المباركِ.

وتَزوّجتْ زبيدةُ من هَارونَ الرّشيدِ، فملأَ الحبُّ قلبيهمَا، واستطاعَتْ بذكائِهَا ولباقتِهَا أن تزيدَ من حبّه لها حتى أصبحَ لايطيقُ فراقهَا ولا يملُّ صحبتهَا، ولا يرفضُ لهَا طلبًا.

ومرّتِ الأيامُ، وأنجبتْ زُبيدةُ من هَارونَ الرَشيدِ ابنهَا «محمّدًا» الأَمينَ، وقَدْ أحبّتهُ كثيرًا، وكانَتْ شَديدةَ العطفِ عليهِ والرّفقِ بهِ لِدرجة أَنَّها بعثَتْ ذاتَ يِوم جاريتهَا إلى الكسائِي مُؤدّبه ومُعلّمه، وكانَ شَديدًا عليه، تقولُ لهُ: «ترفّق بالأمينِ فهو ثَمرة فُؤادي وقُرةُ عَيني». وتولّى هارونُ الرّشيدُ الخلافةَ، فازدادَ الخيُر في البلادِ، واتّسعَ مُلكُه، لدرجةٍ جعلتهُ يقولُ للغمامةِ حينَ تمرّ فوقهُ: «اذهبِي فأَمطري أَنَّى شئتِ، فإنّ خَراجك سَوف يَأتي إلي». ورأتْ «زبيدةُ» زوجةُ خَليفةِ المسلمينَ أن تُساهمَ في الخيرِ، وفي إعمارِ بلادِ الإسلامِ، فحينَ حَجّتْ إلى بيتِ الله الحرام سَنة ١٨٦هـ، وأدركتْ ما يتحمّلهُ أهلُ مكّة من المشاقِ والصعوباتِ في الحصولِ على ماءِ الشربِ، دعَتْ خازنَ أموالِهَا، وأمرتهُ أن يجمعَ المهندسينَ والعمّال من أنحاءِ البلادِ، وقالَتْ لهُ: اعملْ ولو تكلّفتْ ضَرْبةُ الفأسِ دينارًا. وحُفرَ البئرُ ليشرَب منهُ أهلُ مكّة والحجّاجُ وعُرف بعدَ ذلكَ ببئرِ زُبيدة.

ولَمْ تكتفِ زبيدةُ بذلكَ، بَل بَنَتْ العديدَ من المساجدِ والمبانِي المُفيدة للمسلمينَ، وأقامَتْ الكثيرَ من الآبارِ والمنازلِ على طريقِ بغدادَ، حتى يستريحَ المسافرونَ. وكانَ

لهَارُون الرّشيد ابنٌ آخر، هو المأمُونُ، ولَمْ يكنْ المأمُونُ ابن زُبيدة، وإنّما كانَ ابن هَارون من امرأةٍ أُخرى. فلمَّا ماتَ هَارونُ الرّشيد نشبَ صِراعٌ بينَ الأمينِ والمأمُونِ حولَ منصبِ الخلافةِ، انتهَى بانتصارِ المأمُون وهزيمةِ الأمين بن زُبيدة وقتلِهِ. وبعدَ أيامٍ.. دخلَ المأمونُ بغدادَ بعدَ مقتلِ الأمينِ، فاستقبلتْهُ السيدةُ زبيدةُ، وقالتْ لهُ: أهنيكَ بخلافة قَدْ هنأتُ نفسِي بَها عنكَ، قَبل أنْ أراكَ، ولئِن كُنتُ قَدْ فَقدتُ ابنًا خليفةً؛ لقَدْ عُوِّضْتُ ابنًا خَليفةً لم ألِدْه، ومَا خسرَ من اعتاضَ مثلكَ، ولا ثكلَت أُمٌّ مَلأتْ يدهَا منك، وأنا أسألُ الله أجرًا على مَا أخذَ، وإمتاعًا بما عوّضَ. فلمّا سمعَ المأمونُ قولهَا تعجب من صَبرِها، ومِن استقبالِهَا العَظيم لهُ، فقالَ: مَا تَلد النساءُ مثلَ هذهِ. وماذَا أبقَتْ في هذا الكلام لِبُلغاءِ الرّجالِ؟!

وظلَّتْ السيدةُ زُبيدةُ ـ رحمهَا الله ـ مُقبلةً على العلمِ، تقيمُ في قَصرها مَجالس الفُقهاءِ والعُلماءِ في كلِّ فُروعِ المعرفةِ وأنواعهَا، وتُشجّعُ طُلابَ العلم بِما تملكُ من أموالهَا الخاصّة، حتى تُوُفِّيت في بغدادَ سَنَة ٢١٦هـ بعدَ حياةٍ حَافلةٍ بالخيرِ والبرِّ. فرحمةُ الله عليها.

** ** **

سلسلة أشهر النساء

١ - أمهات المؤمنين
٢ - أمهات النبي ﷺ
٣ - بنات النبي ﷺ
٤ - أشهر النساء
٥ - أشهر الشهيدات
٦ - أشهر الزاهدات
٧ - أشهر الخطيبات
٨ - أشهر المجاهدات
٩ - أشهر الفقيهات
١٠- أشهر الشاعرات

٨١٠٠٥٧